ولننظر إلى قول أبي تمام :

إذا سَيْفُهُ أضْحى عَلى الهامِ حاكِمًا
غَدا العَفْوُ مِنْهُ وَهوَ في السَّيْفِ حاكِمُ

مع قول المتنبي :

لَهُ مِنْ كَريمِ الطَّبْعِ في الحَرْبِ مُنْتَضٍ
وَمِنْ عادَةِ الإحْسانِ وَالصَّفْحِ غامِدُ

فإننا نجد للمعنى في كل واحد من البيتين صورة وصِفَة ، غير صورته وصفته في البيت الآخر . ولم يرد العلماء حيث قالوا إن المعنى في هذا هو المعني في ذلك – أن الذي تعقل من هذا لا يخالف الذي تعقل من ذلك ، ولكن قالوا ذلك على حسب ما يقوله العقلاء في الشيئين يجمعهما جنس واحد ، ثم يفترقان بخواص ومزايا « كالخاتم والخاتم ، والشَّنف والشَّنف ، والسِّوار والسِّوار ، وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنسٌ واحد ، ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد في الصَّنعة والعمل . »[1]

وما دام الأمر كذلك ، فإن المقارنة بين قول وقول ، وتركيب وتركيب ، إنما تكون بما بينهما من فروق في نظم الكلام على حسب استعماله للإمكانات النحوية ، ومن هنا لا يمكن لشاعر أن يأخذ بيتًا من الشعر أو فصلاً من النثر فيؤديه بعينه ، وعلى خصوصيته وصنعته بعبارة أخرى ، بل إننا سوف نجد أنفسنا أمام صياغة جديدة ، لها دلالة جديدة ، « ولا يغرَّنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه فأدّاه على وجهه ، فإنه

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .